بسم الله الرحمن الرحيم

٣١ - سورة لقمان

سميت به لاشتمالها على قصته التى تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهى عن الذميمة . وهى معظمات مقاصد القرآن . قاله المهايمىّ . وهى مكية . ويقال : إلا قوله تعالى[1] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ . . .)الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتى الكلام على لقمان والخلاف فيه.

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓ)

[٢] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ)

[٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)

[٤] (ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

[٥] (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

[٦] (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

« الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان لإحسانهم ، يعنى ما عملوه من الحسنات . أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه ، لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها . والمراد بالزكاة ، على أنها مكية ، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه ، وتزكية للنفس بإيتائه ، من وصمة البخل والشح المردى لها . لا أنصباؤها المعروفة . فإنها إنما بيّنت بالمدينة « أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » تعريض بالمشركين . وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة ، ما يُلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم . ليضلّوا أتباعهم عن الدين الحق . قال الزمخشرىّ : و(اللهوُ) كل باطل ألْهَى عن الخير ، وعما يعنى . ولهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التى لاأصل لهـا ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الـكلام . وما لاينبغى، مما كانوا يؤفـكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه. ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى بمـا هى الـكمالات ومنافعها ، والنقائص ومضارّها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث. « أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٨] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ)

[٩] (خَـٰلِدِينَ فِيهَا ، وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

[١٠] (خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ» أى أعرض عنها «مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا» أى ثقلا مانعا من السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » الضمير للسموات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لامحل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر، صفة للعمد. أو بغير عمد مرئيّة. يعنى أنه عمدها بعمد لاترى

وهى إمساكها، بقدرته. كذا فى (الكشاف) «وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ» أى جبالًا ثوابت « أَن تَمِيدَ بِكُمْ » أى تميل بكم فتهلككم لما فى جوفها من قوة الجيشان « وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ » أى من كل نوع من أنواعها «وَأَنزَلْنَا» أى لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللرفق بكم وبدوابكم « مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف من الأغذية والأدوية « كَرِيمٍ » أى كثير المنافع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ، بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ)

« هَٰذَا» أى ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة «خَلْقُ ٱللَّهِ »أى مخلوقه « فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ »أى مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة« بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البيّن المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً ، فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه . ووضعُ الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشىء فى غير موضعه. ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ » يعنى استكمال النفس بالعلوم النظرية ، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، آمرين له على لسان نبىّ أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحى (على قول عكرمة أنه نبيّ) « أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ » أى على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيرا . كذا قاله المهايميّ . والأظهر أن (أنْ) مفسرة. فإن إيتاء الحكمة فى معنى القول. والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ » أى غنىّ عن كل شىء . فلا يحتاج إلى الشكر . وحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان. هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة، على قولين : الأكثرون على الثانى . ويقال إنه كان قاضيا على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبدا مسّه الرق ، وينافى كونه نبيا . لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما يُنقل كونه نبيا عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه[1] رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبيا . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفىّ . وهو ضعيف. والله أعلم . انتهى.

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنىّ . وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب فى تقريبه ، بأن الفعل العربىّ وهو (لقم) معناه بالعبرىّ بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطىّ من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقولْ ... قيل نبىّ أوْ ولىٌّ أو رسولْ

لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم ... والوقف فى الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبى الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرَّ بالوالدين، كما قال تعالى[1] (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا) وكثيرا مايقرن تعالى بين ذلك فى القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ، إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ)

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ » أى بالإحسان إليهما ، لاسيما الوالدة . لأنه « حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة. و(وهنا) حال من (أمه) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال. أى: تهن وَهْناً. وقوله (عَلَىٰ وَهْنٍ) صفة للمصدر. أى كائنا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا « وَفِصَٰلُهُۥ » أى فطامه « فِى عَامَيْنِ » ثم فسّر الوصية بقوله سبحانه « أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ » أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره. قال فى (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له . واعترافه بنعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره. هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناؤه عليها . فإن عدم منها واحدة، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر. وكل من تكلم فى الشكر، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] .

وقوله تعالى « إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ » تعليل لوجوب الامتثال . أى إلىّ الرجوع ، لا إلى غيرى، فأجازيك على ماصدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول ـ قال الزمخشرىّ: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ماتكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا، وتذكيرا بحقها العظيم مفردا. ومن ثم قال رسول الله ﷺ[1] (لمن قال له من أبرّ؟) : أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك : ثم أباك . وعن بعض العرب[2] أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول فى حدائه بنفسه .

أَحْمِلُ أُمِّى وَهِىَ الْحَمَّالَهْ * تُرْضِعُنِى الدِّرَّةَ وَالْفُلَالَهْ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهْ

الثانى ـ قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى (وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ) كقوله[3] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال فى الآية الأخرى[4] (وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا) وإنما ذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى[5] (وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢ ـ باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ).

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .(٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] .(٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤].

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى فى توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التى لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تفطمه . ويدل عليه قوله تعالى[1] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى إشراك ما لا تعلمه مستحقا للعبادة ، تقليدا لهما .

وقال الزمخشرىّ : أراد بنفى العلم به نفيه ، أى لا تشرك بى ماليس بشىء ، يريد الأصنام . كقوله[2] (مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ) .

قال فى (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفى العلم لنفى وجوده . كما مر فى القصص . وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ فى نفيه حتى جعل كلا شىء . ثم بولغ فى سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة « وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا » أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية أن الوالد لا يطاع فى الكفر . ومع ذلك يصحب معروفا « وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ » أى بالتوحيد والإخلاص فى الطاعات ، وعمل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُم إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كناية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضى : والآيتان ، يعنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ إلى قوله ـ تَعْمَلُونَ) معترضتان فى تضاعيف وصية لقمان ، تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة فى ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو البارئ تعالى فى استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا فى الإشراك . فما ظنك بغيرهما ؟ انتهى .

ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[١٧] (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ » أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان، إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل « فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ » أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر ، فى أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة. أو حيث كانت فى العالم العلوىّ أو السفلىّ « يَأْتِ بِهَا اللَّهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته فى كل شىء « خَبِيرٌ » أى يعلم كنه الأشياء، فلا يعسر عليه. والآية هذه كقوله تعالى[1] (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

شَيْئًا) الآية ، وقوله[1] (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ) الآية، من البديع الذى يسمى التتميم. فإنه تمم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها[2] (كأنه علم فى رأسه نار). « يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها، لتكميل نفسك بعبادة ربك « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ » لتكميل غيرك « وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ » أى من المحن والبلايا. أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرّض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية[3] (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) « إِنَّ ذَٰلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

---

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترثى أخاها صخرا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنَكِ أم بالعين عُوَّارُ أم ذرَّفت ،أم خَلَتْ من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أغرّ أبلجُ تأتمّ الهداةُ بِهِ *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ)

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء فى الحديث[1] (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) « وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا » أى خيلاء متكبرا « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ » أى معجب فى نفسه « فَخُورٍ » أى على غيره «وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ » أى توسط بين الدبيب والإسراع «وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ» أى انقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال « إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و (أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شىء نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال فى العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزمخشرىّ : الحمار مثل فى الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكره مجردا ، وتفاديهم من اسمه ، أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستقذرة . وقد عُدّ فى مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار فى مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا ـ مبالغة

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البر والصلة ، ٤٥ ـ باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة فى الذم والتهجين . وإفراط فى التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان فى أحاديث مرفوعة. منها ما رواه الإمام أحمد[1] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبى حاتم عن القاسم بن مخيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بنىّ إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبى حاتم عن السرىّ بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يابنىّ إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بنىّ ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعنى السلام) ثم اجلس فى ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالألوهية، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ، أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » أى من النجوم والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى. وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له . وكذا ما أوجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له فيما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً » أى محسوسة ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ ٱلنَّاسِ » يعنى الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ » أى فى توحيده وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبىّ « وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ » أى لمن يجادل. والجمع باعتبار المعنى « ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ » أى يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب. كأنه يدعوهم إلى عين العذاب. فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنّى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)

[٢٤] (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

[٢٥] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ)

[٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

[٢٨] (مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ)

[٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

«وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »أى فى أعماله «فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ » أى تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن، بحال من أراد رقىّ شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلّى منه « وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا » أى من الأعمال الظاهرة والباطنة « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لايكادينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ » أى عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا « ٱلْحَمِيدُ » أى المحمود فيماخلق وشرع، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ » أى من بعد نفاده « سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ » أى التى أوجد بها الكائنات، وسيوجدبها مالاغاية لحصره ومنتهاه. والسبعة ، إنما ذكرت ، على سبيل المبالغة لاالحصر . « إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ »أى إلا كخلقها وبعثها فى سهولته « إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى أمد قدره الله تعالى لجريهما، وهو يوم القيامة « وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى لأن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق ، لايكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بما يأتى ويذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ)

[٣١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[٣٢] (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارئ بها « بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيئة أسبابه « لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ

صَبَّارٍ » أى عظيم الصبر على البأساء والضراء « شَكُورٍ » أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها « وَإِذَا غَشِيَهُمْ » أى علاهم وأحاط بهم « مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ » أى كالسحب والحجب « دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى التجئوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الضر « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » قال ابن كثير : قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى[1] (فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله[2] تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) الآية ، فالمقتصد هنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل ، أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصرا والحالة هذه . والله أعلم . انتهى « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ » أى غدّار ، ناقض للعهد الفطرىّ ولعقد العزيمة وقت الهول البحرىّ « كَفُورٍ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى . لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابّه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا » أى ليس بمغن أحدهما عن الآخر شيئا ، لانقطاع الوُصَل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السعود : وتغيير النظم ـ فى الثانية ـ للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ » أى الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ » أى علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ » أى فى وقته الذى قدره ، وإلى محله الذى عينه فى علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ » أى من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقى « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أى من خير أو شر « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أى فى بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء فى الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتح الغيب « إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .